



ليس هناك صورة تعبّر عن مأساة الحرب السورية أفضل من المفارقة التي أظهرت سعادة النازحين، لحظة خروجهم من حصار الجوع والموت، بينما كانوا على طريق الموت الآخر الذي ينتظّرهم في مخيّمات التشرد واللجوء وعواصف الثلوج على حدود بلدّهم. أمام هذا المشهد، تظهر محدودية ما حصل في الأيام الأخيرة من "مكتسبات"، سواءً اتجسد في اتفاق وقف إطلاق النار، أو إعلان موسكو الذي يشير إلى بداية تفاهم روسي إيراني، أو تصويت الجمعية العامة للأمم المتحدة على آلية لتوثيق جرائم الحرب وملاحقة المسؤولين عنها. ومع ذلك، ما من شك في أن هذه المكتسبات الصغيرة بدأت تثير آمال سوريين كثيرين سئموا الموت، وأصبحوا، مثل إخوانهم الذين وجدوا أنفسهم فرحين بخروجهم من تحت الحصار والقصف، مع معرفة ما ينتظّرهم في حياة التشرد من عذاب وضياع، كالمستجير من الرمضاء بالنار.

فهل تنجح موسكو في إخماد نيران الحرب التي ساهمت في تمديد أجلها، وتحصد ثمار جهودها، أم سوف تعرق في وحولها، كما يتنّى لها منافسوها، ليس في الغرب فحسب، ولكن في منطقة الشرق الأوسط أيضاً؟ سوريا بين التسوية الروسية وال الحرب الدائمة الإيرانية.

نجمت موسكو في فرض نفسها على جميع الأطراف المنافسة لها في سوريا، وهي تتصّرّف تجاههم، كما لو كانت قوة انتداب رسمية حاصلة على تفوّض دولي لإدارة الأزمة السورية، وإيجاد مخرج لها. وقد عزّز موقفها في الأشهر الأخيرة بنجاحها في إسقاط حلب بالتأكيد، لكن أيضاً، من طرف آخر إجبار حليفها الإيراني على قبول وقف النار وفتح المعابر للنازحين، وتمريرها يوم 19 من ديسمبر/كانون الأول الجاري قرار مجلس الأمن القاضي بإرسال قوات مراقبة دولية إلى حلب، وإعلانها أخيراً عما يشبه خطة طريق، حتى لو كانت تبسيطية، لإطلاق عملية مفاوضاتٍ تبدأ بوقف شاملٍ لإطلاق النار على كامل الأراضي السورية، قبل إطلاق مفاوضاتٍ تهدف إلى التوصل إلى تسويةٍ سياسية في ظل بقاء الأسد ومشاركة المعارضة، في إطار تعديلٍ متفق عليه للدستور وإصلاح تدريجي في بنية السلطة وأساليب الحكم.

على الرغم من تواضعه، يتعارض هذا المشروع، مع مخططات طهران بشكل قاطع. فليس لطهران أي مصلحةٍ بوقف الحرب السورية. وبينما تريـد موسـكو استثمار سقوـط حـلب لـتعزيـز فرصـ إيقـافـ الـحـربـ، تـطـمـحـ طـهـرـانـ إـلـىـ تحـوـيلـ سـقوـطـ حـلبـ إـلـىـ فـرـصـةـ لـانـقـلـابـ شـامـلـ فيـ عـلـاقـتهاـ بـسـورـيـةـ وـالـمـنـطـقـةـ، وـتـحـوـيلـ سـورـيـةـ إـلـىـ عـرـاقـ إـلـىـ تـحـكـمـ بـهـ مـلـيشـيـاتـهاـ وـحـرسـهاـ الثـورـيـ. وـهـذـاـ ماـ أـكـدـهـ سـعـيـ هـذـهـ مـلـيشـيـاتـ، حـتـىـ الـلحـظـةـ الـأـخـيـرـةـ، إـلـىـ تـعـطـيلـ الـاـتـفـاقـ فـيـ حـلـبـ، عـلـىـ أـمـلـ إـفـشـالـ الخـطـطـ الـرـوـسـيـةـ بـأـكـلـهـاـ.

ما حدا بموسكو إلى مراجعة خططها، ودعوة طهران إلى لقاء ثلاثي بحضور أنقرة، ومع استبعاد الأطراف الأخرى، بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية، والمملكة العربية السعودية، الطرف العربي الرئيسي المنخرط منذ البداية في المسألة السورية.

مشكلة طهران أنها، وهي الطرف الذي استثمر أكثر من أي طرف آخر في الحرب ضد الثورة السورية، وبذل المال والسلاح، وخسر سياسياً وأخلاقياً كما لم تخسر أي دولة أخرى، لا تزال بعد مرور ست سنوات على الحرب الطرف الأكثر افتقاراً من أي طرف آخر متورّط فيها لقاعدةٍ قانونية أو سياسيةٍ، تضمن لها الحفاظ على نفوذها وتوسيعه في المستقبل. رهانها الوحيد هو على توسيع دائرة قاعدتها الطائفية أو المذهبية، وهذا ما لا يزال يحتاج إلى عمل وتحضيرات طويلة. لذلك، تشعر طهران أن دخول النظام السوري، أو إدخاله، في المفاوضات الآن، وبرعاية روسية يصعب تحديها، يجري على حسابها، وهو يهدّد بأن يسحب منها القرار السوري الداخلي، ويهدّر استثماراتها الطويلة، ويدين سياسة المرشد الأعلى السورية بالفشل والإفلاس السياسي والأخلاقي الذي لا يعادله سوى الإفلاس الذي عرفته سياسة ألمانيا النازية المجنونة في الحرب العالمية الثانية.

لذلك، ليس لطهران، التي تراهن على إبقاء سوريا جزءاً عضوياً من إمبراطوريتها، بعد تمويل حربٍ وحشيةٍ لكسر إرادة شعبها، خيارٌ أفضل من استمرار الحرب، وتوسيع دائرة الفوضى والخراب، كما هو الحال في العراق، حتى تحصل على الوقت الضروري لبناء قواعد نفوذها، سواء بتغيير النسيج السكاني جزئياً، أو بالتحكم بمؤسسات الدولة وأجهزتها، على مستوىٍ أوسع مما حققه حتى الآن. وهي تراهن من أجل البقاء في سوريا، وإيقائها رهينةً لها، على تجنيد مجموعاتٍ مرتبطة بها، مذهبياً واجتماعياً، مستفيدةً من الأقليات المذهبية المحلية القرية منها، ومن الجاليات الجديدة التي تريد توطينها في الواقع الاستراتيجي حول حلب ودمشق وحمص، كما تراهن على التعطيل المديد لعمل الدولة، وإلغاء أي احتمالٍ لإعادة بنائها، في ما يشبه نموذج عمل الحركة الحوثية في اليمن، ما يفتح أمامها إمكانية العمل بهدوء وحرية على تغيير الواقع الاجتماعي والديمغرافية والمذهبية.

لم تكن التسوية السياسية، أو وقف النار، هما ما كانت تنتظره طهران من سقوط حلب أو إسقاطها، وإنما تكريس الانتصار الكامل، وإلغاء فكرة التسوية نفسها التي لا ترى مكاناً لها مع معارضةٍ تصف جميع منتسبيها بالإرهابيين، وفي أحسن الأحوال، بالصهيون أميركيين. ومهما حاولت موسكو أن تطمئنها، ستظل طهران تشعر بأن القوة الروسية التي أنقذت مشروعها من الهزيمة، عندما تدخلت عسكرياً لصالحها وصالح الأسد عام 2015، هي التي تسرق الانتصار منها، وتحرمها من رسملة استثماراتها وتحول بينها وابتلاع فريستها المستحقة، كما كانت تنتظر بثقةٍ كاملة. تشعر طهران، من دون شك، كما لو أن موسكو، بقصد أو من دون قصد، تحاول أن تخطف اللقمة من فمها. وما يُورقها أكثر أن الوقت يداهمها، ولم يعد لديها فرصٌ كثيرةً للمناورة قبل قدوم الإدارة الجديدة، التي يتميز عديدون من شخصياتها، إن لم يكن معظمهم، بمعاداتهم الشديدة سياسات النظام الإيراني. ومن المفترض أن يعزز التفاهم الأميركي الروسي المحتمل موقف موسكو، ويجعلها أكثر قدرةً على الوقوف في وجه المشاريع الإيرانية في سوريا.

هناك أكثر من عامل يدعو إلى التصادم بين السياسيين، الروسي والإيراني، في سوريا. أولها اختلاف الأجندة. فبينما تعتقد موسكو أنها في أفضل وضع لحصاد ما زرعته، وإن أي إضاعة ل الوقت يهدّد مكاسبها، تشعر طهران بأنها بالكاد انتهت من نصب الفخ للطريدة، فكل ما فعلته، في السنوات السابقة، كان تمهدًا لحل عرى المجتمع وتفكيره وتمهير الدولة.

والآن، جاء أوّان الزرع ووضع البذار، أي العمل على شرعة المليشيات، وتشييع جزء من المشرّدين والمحتاجين وقلب المجتمع رأساً على عقب. ولذلك، هي بحاجة إلى أكثر ما يمكن من الوقت لتحقيق أهدافها وتكريس مكاسبها. وثانيها الهدف،

في بينما تنتظر روسيا من مناورتها السورية تغيير نوعية علاقتها المختلة مع الغرب، وإعادة موضعها قوًّاً أو قطباً رئيسياً في صياغة أجندـة السياسة الدوليـة. وبالتالي، اكتساب اعتراف الغرب وشراكتـه. وترـيد أن تـنـجـحـ في تقديم نفسها دولةً قادرـةً على المـسـاـهمـةـ في حلـ الأـزـمـاتـ الدـولـيـةـ. وـتـنـظـرـ إـلـىـ سـوـرـيـةـ فـرـيـسـةـ تـرـيدـ اـبـلـاعـهـاـ، لـتـكـبـيرـ نـفـسـهـاـ وـتـعـظـيمـ قـوـتـهـاـ وـتـحـسـيـنـ فـرـصـ صـرـاعـهـاـ الـوـجـوـدـيـ معـ الغـرـبـ فيـ المـشـرـقـ وـفـيـ مـاـ وـرـاءـهـ. وـثـالـثـاـ الـاـسـتـرـاتـيـجـيـةـ. فـمـاـ تـطـمـحـ إـلـيـهـ مـوـسـكـوـ هوـ اـسـتـخـدـامـ فـرـاجـهاـ فيـ سـوـرـيـةـ، بـحـسـمـ الـحـرـبـ عـسـكـرـيـاًـ أوـ مـاـ يـشـبـهـ حـسـمـهاـ لـصـالـحـ النـظـامـ، وـدـفـعـ الـأـطـرـافـ إـلـىـ الـقـدـومـ إـلـىـ طـاـوـلـةـ الـمـفـاـوـضـاتـ، وـرـبـماـ التـوـصـلـ إـلـىـ تـسـوـيـةـ تـنـهـيـ الثـوـرـةـ وـالـنـزـاعـ مـعـاـ، إـلـىـ إـعـادـةـ بـنـاءـ الـدـوـلـةـ الـتـيـ أـصـبـحـ أـكـبـرـ قـاعـدـةـ عـسـكـرـيـةـ وـسـيـاسـيـةـ لـهـاـ خـارـجـ رـوـسـيـاـ، وـتـأـمـيـنـ إـدـارـتـهـاـ السـيـاسـيـةـ. وـتـرـاهـنـ إـرـاـنـ، بـالـعـكـسـ، عـلـىـ خـرـابـ سـوـرـيـةـ وـالـشـرـقـ الـأـوـسـطـ بـأـكـمـلـهـ، وـنـشـرـ الـفـوـضـيـ وـالـفـرـاغـ الـاسـتـرـاتـيـجـيـ فـيـهـ، لـتـرـوـيـعـ الـغـرـبـ وـتـهـدـيـهـ وـأـنـتـزـاعـ اـعـتـرـافـهـ بـنـظـامـهـاـ وـمـكـتـسـبـاتـهـاـ، وـهـيـمـنـتـهاـ الـإـقـلـيمـيـةـ.

مأزق الاحتلال الإيراني:

لا يعني هذا أن التحالف الروسي الإيراني مهدّ بالتفكّك، فليس هناك أي مصلحة لطهران أو "مصلحة روسيا تقتضي التوصل إلى حل سياسي للأزمة، أو على الأقل إظهار قدرتها وإرادتها على إيجاده" موسكو في إنهاء تحالفهما المفيد من نواحٍ عديدة أخرى. فموسكو لاتزال تحتاج إلى القوة البرية الإيرانية لاحكام قبضتها على سوريا، تماماً كما تحتاج طهران إلى المظلة الجوية والسياسية الروسية، للتمكّن من البقاء، وترسيخ حضورها في سوريا الآن، وفي أي تسوية قادمة. لكن الحفاظ على التحالف أو السعي للحفاظ عليه لا يلغى الخلاف في المصالح، ولا يعني انتفاء التنازع على الأولويات. وهذا هو الحال في ما يتعلق بتصوّر صيغة الخروج من الحرب المدمرة السورية والمهدّدة لجميع الأطراف، باستثناء طهران التي تحرك الخيوط من بعيد، وتراهن على قوى محلية وإقليمية أكثر مما تزجّ نفسها في المعارك اليومية. ولا علاقة لما تخشاه طهران بروسيا، أو بمصالحها المباشرة مع روسيا، ولكن بمشروع روسيا في سوريا. فمصلحة روسيا تقتضي التوصل إلى حل سياسي للأزمة، أو على الأقل إظهار قدرتها وإرادتها على إيجاده، يعزّز ما تطمح إلى تكريسه دوراً إقليمياً دولياً، ويضاعف نفوذها في المشرق وفي دول الخليج العربي أيضاً، ولا مصلحة لها بالاصطدام وراء إيران أو الالتصاق بها. وهذا يتطلب منها أن لا تسمح لطهران بأن تكون الرابح الأول أو الأكبر في سوريا، بل أن تسعى، بالعكس، إلى الحد ما أمكن من أطماعها للحفاظ على علاقاتها الإقليمية، واكتساب موقع الدولة العالمية.

في المقابل، تطمح طهران إلى أن تحول نهاية المواجهة في سوريا انتصاراً تاريخياً على الغرب من خلال انتصارها على العرب ودول المنطقة القريبة منه أو المحسوبة عليه، وأن تجعل من إلحاقيها سوريا بها غنيمة حرب، تحتكر فيها وحدها النفوذ والسيطرة والقرار. سوريا المحررة من شعبيها الثائر هي، في نظر طهران الخامنئية، خط دفاع استراتيجي عن أمن إيران القومي، لا يهم من يسكنها، وما مصير شعبيها، تماماً كما هو الحال في العراق ولبنان.

بعبارية أخرى، يستند نجاح موسكو، في تحقيق أهدافها في الاعتراف الإقليمي والدولي بها، قوة عالمية إيجابية، وترسيخ وجودها، ليس في سوريا فحسب، وإنما في المشرق والشرق الأوسط كله، بوصفها قوة استقرار وأمن وسلام، يمكن الاعتماد عليها، والارتقاء بنفسها إلى مصاف الدولة العالمية الحضور، كما كانت في العهد السوفييتي السابق، على قدرتها على وقف الحرب. ولا يمكن تحقيق ذلك من دون تسوية سياسية، وتفاهم بين السوريين، حتى لو ربحت عسكرياً.

فالنظام السوري لم يعد موجوداً بالفعل، ولا بد من إيجاد بديل له، والطغمة التي قادت الدولة إلى الهلاك لا يمكن أن تكون هي نفسها البديل، ولا سبيل لتحقيق الحد الأدنى من التفاهم السوري السوري من دون إجراء تعديلات دستورية وإصلاحات سياسية ومشاركة لجميع الأطراف في الحكم الجديد. أما طهران التي تعرف أن نظام الأسد قد انهار وتفكك، ولم يبق منه

شيء، فهي تريد أن تعد نفسها و مليشياتها لتكون النظام الوريث، أي أن تبني نظاماً يستند كلياً إليها، و تحرّكه روح التبشير المذهبية والعداء لشعوب الإقليم ذاته الذي يحرّكها، وهي لا تتمسّك بالأسد إلا قناعاً تختفي به نظام الاستعمار والإحلال الحقيقي الذي تسعى إلى إقامته بدليلاً لنظامه.

من هنا، يبدو لي أن من الصعب أن تتجنب طهران الصدام مع ما لا ينبغي وصفه بأكثر من مشروع التهدئة الروسية في سورية، ما لم تقبل بتخفيف سقف توقعاتها وإعادة تعريف مصالحها وأهدافها التي دفعتها إلى غزو سورية، تحت قناع الدفاع عن نظام الأسد، أو النجاح في إثارة نزاعات أو صراعات جانبية، وربما مع تركيا بشكل رئيسي، لإجهاض العملية السياسية. وهي لم تصرّ على حضور اللقاء الثلاثي في موسكو، وتوقع على بيانه، إلا كي تتمكن من الانقضاض عليه في مرحلة تالية وتعطيل أي تسوية سورية.

على الرغم من شراكتها الكاملة في تحطيم آمال السوريين، ومن تواطؤها مع الأسد وطهران، لحرمانهم من حقهم في تقرير مصيرهم، أي من الحرية والكرامة والسيادة والاستقلال، ما زال من الممكن لموسكو أن تلعب دوراً في مساعدة السوريين على الخروج من المحنّة. ولا يمكن أن يتجسد هذا الدور في المساهمة في التغيير السياسي، وبناء النظام الجديد الديمقراطي الذي ينشده السوريون، فهو ليس من أهدافها، ولا من أولوياتها، وليست قادرة عليه، وإنما في العمل على وضع حد للحرب التي كانت طهران، ولا تزال، الواقع الرئيسي والأول في نارها.

ساهمت كل الأطراف التي انخرطت في الأزمة السورية، بشكل أو آخر، في إطالة معاناة السوريين، بعضها بسبب تأمره، وبعضها بسبب تجاهله وتخاذله، وبعضها بسبب أخطائه وسوء إدارته وبعضها لقلة حيلته، وبعضها، كما هو الحال بالنسبة للمعارضة السورية، لضعف تنظيمه وانقسامه وتنافذه. لكن، ما كان لهذه المأساة أن تصل إلى ما وصلت إليه من الوحشية وذرع الشر والدمار، ولا أن تدوم هذه السنوات الطويلة، من دون إرادة الهيمنة المرضية التي تتغذى من مشاعر التفوق العنصري، وروح الانتقام من العرب والغرب التي تحرّك النخبة التيوقратية الإيرانية الحاكمة اليوم. ولا أعتقد أن من الممكن إنقاذ المشرق من محنّة الحرب الدائمة التي تدفعه إليها طهران من دون لجم هذه الإرادة، ووضع حد لنظام السلطة الأبوية والبابوية "الصلبيّة" التي تخضع لها الدولة الإيرانية، والتي تفرض على الشعب الإيراني الضحية طریقاً واحداً لتحقيق ذاته وطالعاته: هو طريق الحرب والتّوسيع والجهاد الطائفي. ما تطمح إليه طهران الخامنئية، باسم نشر الثورة الإسلامية، هو فتح مضاد يلغى نتائج الفتوح العربية الإسلامية، ويعيد إلى الامبراطورية البائدة مجدها وهيمتها. لكن، لن تكون عواقب هذه السياسة، في نهاية المطاف، سوى انهيار إيران وخراب الإسلام ديناً ودنياً في الوقت نفسه.

هل تنجح موسكو في كبح جماح الهيمنة الإيرانية، واحتواء وحش التوسيعية القومية والمذهبية المتعطش لمزيدٍ من الدماء والعظمة والانتصارات؟

في الإجابة الإيجابية عن السؤال تكمن مهمة روسيا التاريخية وفرصة موسكو الوحيدة للنجاح في وضع نهاية للحرب السورية، وللحروب العديدة الأخرى التي ولدت من صلبها، وعلى هامشها، بما فيها الحروب الداعشية، وهذا بصرف النظر عن طبيعة النظام السياسي الذي سوف ينجم عن السلام.

المصادر: